15

وصية في الإيمان والعمل

نص الوصية

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنتُ خَلْفَ رسول الله ﷺ يوماً فقال: «**يا غلامُ، إني أُعَلِّمُكَ كلماتٍ: احفظِ اللهَ يَحْفَظْكَ. احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ. إذا سألْتَ فاسأل اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستَعِنْ باللهِ، واعلَمْ أن الأُمَّةَ لَو اجتمعَتْ على أن يَنْفَعُوكَ بشيءٍ لم ينفعوكَ إلا بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ لك، ولَو اجتمعُوا على أن يَضُرُّوكَ بشيءٍ لم يضرُّوكَ إلا بشيءٍ قد كَتَبَهُ اللهُ عليكَ. رُفِعَتِ الأقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

وفي رواية أخرى جاء فيها: «**احفظِ اللهَ تَجِدْهُ أمامَكَ. تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يعرفْكَ في الشِّدَّةِ، واعلَمْ أنَّ ما أخطأكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، واعلَمْ أنَّ النصرَ مع الصَّبْرِ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً**»[2].

مفردات الوصية

رفعت الأقلام وجفت الصحف: كناية عن أن ما قد كتبه الله على العباد قد تم وانتهى منذ الأنا، ولا مجال لتغييره إذ هو في لوح محفوظ عنده.

---

(1) سنن الترمذي برقم (2516). وهو صحيح.

(2) رواه أحمد في المسند برقم (2804). والطبراني في "المعجم الكبير" برقم (11243) و(11560). وهو صحيح.

ما يُفْهَمُ من الوصية

أختي المسلمة، هذه وصية إيمانية تتضمن أمر المؤمنين جميعاً بالالتزام بها التزاماً صحيحاً، وفيها معانٍ لا بد أن نقف عليها فيما يلي:

1- حفظ الله

إن معنى قول النبي ﷺ: **«احفظِ اللهَ يحفظْكَ»** هو احفظ أوامر الله باتباعك لها، ونواهيه بابتعادك منها واجتنابها، وبعدم تعدي حدود الله، فإن فعلت ذلك فهو يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما أعطاك إياه وأنعم به عليك من فضله الكريم.

وأما قوله: **«احفظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»** أو **«أمامَكَ»** فيعني: اعمل لله بالطاعة بدون أن يراك مخالفاً له، فإنك إذا فعلت ذلك تجده تجاهك في الشدائد كما حصل مثلاً للثلاثة الذين حدثنا النبي ﷺ أنهم أصابهم مطر فالتجؤوا إلى غار، فهبطت صخرة من أعلى الغار فسدَّت فمه، فاقترح بعضهم أن يتوسل كل منهم بعمل صالح عَمِلَهُ في حياته إلى ربه لينقذهم، فدعا كل واحد بعمل صالح عمله، فكانت الصخرة تنزاح قليلاً كلما دعا واحد منهم إلى أن تزحزحت الصخرة وخرجوا يمشون.

2- سؤال الله

والسؤال لا يكون لغير الله سبحانه، فكل ما على الوجود هو مخلوق لله سبحانه وتعالى ومحتاج إلى الله، والله لا يحتاج إلى أحد ولا إلى شيء، وهو الغني عن كل ما في الوجود، والوجود كله يفتقر إليه ويحتاج إليه لتدبيره وتسييره وتوجيهه بعنايته ولطفه.

وقد أمر النبي ﷺ بإفراد الله بالسؤال وحده، وألا نسأل سواه حاجة من حاجات الدنيا، فقد قال النبي ﷺ موضحاً هذا: **«سَلُوا اللهَ من فَضْلِهِ فإن الله يحب أن يُسألَ»**، وفي حديث لأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: **«من لا يسأل اللهَ يغضبْ عليه»**، وورد أيضاً قوله ﷺ: **«إن اللهَ يحبُّ الملحِّين في الدعاء»**، وقوله: **«يسألُ أحدُكُم ربَّهُ حاجتَهُ كلَّها حتى يسألَهُ شِسْعَ نعلِهِ إذا انقطع»**[1].

وقد بايع جماعة من الصحابة رضي الله عنهم النبي ﷺ على ألا يسألوا الناس شيئاً، منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر وثَوْبَانُ رضي الله عنهم، فقد كان أحدهم يسقط منه سوطه أو زمام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله إياها.

أختي المسلمة، إن السؤال ذلٌّ، ولا ينبغي أن نتوجَّه به إلا لله تعالى، فحين يسأل أحد الناس حاجةً يطلبها من غيره كالمال وغيره، فإن السائل يقف بين يدي المسؤول كأنه ذليل أو يشعر بذل كبير في نفسه، وربما يتعالى المسؤول على السائل تعالياً كبيراً، وهو الغالب بين الناس، وحين يسأل العبد الله سبحانه وتعالى فهو يسأل الخالق الذي نشعر بالضعف أمامه، ونتذلل له سبحانه بدون شعور بأي خجل، فالجميع أمامه سواء في السؤال، وهو الغني والقادر على تحقيق كل شيء وتلبية حاجات العباد، فهل نسأل مخلوقاً مثلنا هو عاجز أمام قدرة الله، ومحتاج إلى الله؟

ومهما سألنا الله سبحانه فلن ينقص عطاؤه لنا من ملكه شيئاً؛ فقد جاء في الحديث القدسي أن الله عز وجل قال: **«يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسَكُم وجِنَّكُم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيتُ كلَّ إنسان**

(1) شسع النعل: هي قطعة جلد تمسك النعل في القدم.

مسألتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَطُ إذا غُمِسَ في البحر»[1].

ثم قال: **«وذلك بأني جَوَادٌ واجِدٌ ماجدٌ أفعل ما أريد، عطائي كلامٌ، وعذابي كلامٌ؛ إذا أردتُ شيئاً فإنما أقول له: كُنْ فيكون»**[2]؛ فالله يعطي ويأخذ ويمنع ويعذب بأمره، وهو لا يحتاج إلى أن يقوم بأفعال البشر التي تتعلق بأبدانهم وأعضائهم، بل هو يأمر بكلمة منه فيتحقق الأمر، سبحانه وتعالى عما يصفون.

3- الاستعانة بالله

أختي المسلمة، يقول الله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]؛ وهو يعني أننا لا نستعين إلا به وحده، فأمر النبيَّ ﷺ أن يُفْرِدَهُ وحده بالاستعانة، وألا يعتمد أو يتَّكِل على غيره، وهذا له فائدتان:

الأولى: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في الطاعات.

الثانية: أن العبد ليس له معين على مصالح دنياه ودينه إلا الله عز وجل، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خَذَلَهُ فهو المخذول.

وقد جاء في الحديث قوله ﷺ: **«احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»**، وكذلك علَّمنا النبي ﷺ أن نقول في خطبة الحاجة: **«الحمد لله نستعينه»**، كما علَّم معاذ بن جبل رضي الله عنه أن يقول في دُبُر كل صلاة: **«اللهم أَعِنِّي على ذكرك وشكرك وحُسْنِ عبادتك»**؛ فالعبد يحتاج كثيراً إلى مولاه في طلب إعانته على فعل المأمورات وترك المحرمات والصبر على ما قدَّر

---

(1) المخيط: الإبرة.

(2) واجد: غني. وماجد: كريم ذو فضل وعطاء.

الله لـه أيـضاً ؛ فقـد قـال يعقـوب عليـه الـسلام في الـصبر علـى المقـدور: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

ولا يعارض هذا الـذي أوصـى بـه الله ورسـوله أن نقـوم بـأداء الأسـباب والحالات الدنيوية، فهذا كله من جملة سؤالنا لله واستعانتنا به سبحانه ؛ فإن الذي سأل الله أن يرزقـه فرزقـه فهـذا مـن فـضل الله وكرمـه علـى عبـده، وإن حرمه الله فهذا بسبب مصلحة لا يعلمها العبد، ولو كشف الغطاء للعبد لعلم أن الحرمان أفضل له من أن يعطيه الله، وعلى كل حال على العبـد أن يـسعى لكـسـب الحـلال فالعمـل فـرض علـى القـادر المحتـاج، وهـذا اتِّبـاع للأسـباب الدنيوية وما تقتضيه من أحوال التي فيها.

فالاستعانة بالله ترشدنا إلى التوكل عليه ؛ ويعني ذلك الاعتماد على الله اعتماداً كلياً في أول الأمر وفي آخره، فالتوكـل يـستلزم ألا نتخـذ إلهـاً سـوى الله، وألا نعتمد على أحد سوى الله، وقد قال الله تعـالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: 3] أي أنـه الكـافي لـه ولا أحـد غـيره يكفيـه حاجاتـه ويعينه في أمره.

4- الإيمان بالقدر واجب

فإذا ظننتِ – **أختي المسلمة** – أن **أباك أو أمك** أو أخـاك أو غيرهـم مـن البشر يقدرون **على حمايتك أو** على **نفعك وضرك** أو تقـديم المعونـة إليـك، واطمأنَّت **نفسك إلى أن أباك** ينفق **عليك أو أنه يحميك** أو أنه يقدر على تقديم أيِّ معونـة إليـك، **فإنك قـد صـرفت وجهـك** عـن ربـك اعتمـاداً علـى مـن لا ينفعك ولا يضرك، وكذلك هي الحال عند الخوف من غير الله.

فالخوف غريزة في الإنسان، غير أن الغريزة تتوجه المشاعر الصادرة عنها بأفكار الإنسان، والمسلم أفكاره ذكراً كان أو أنثى مستمدة من اعتقاده، واعتقاده يأمره بعدم الخوف من الناس وبأن يصرف خوفه إلى الله وحده لا شريك له مالك الملك، فهو النافع، وبيده الضرر الذي يستطيع أن يزيحه عنه، فإذا اشتغل القلب بمحبة الله، ورسخت فيه تلك المحبة، وعلم أن الله وحده هو مالك كل شيء ومليكه، وفاطر السماوات والأرض، ورب كل شيء، وهو القاهر فوق عباده، فإن الخوف لا يكون إلا منه سبحانه لا من أحد غيره، فكيف يخاف مخلوق من مخلوق؟

وقد أوضح لنا النبي ﷺ في هذه الوصية أن أهل الدنيا جميعاً لو أرادوا أن يضروا إنساناً واحداً فلا يقدر أحدهم على ذلك إلا بإذن الله وبأمره، وكذلك لا يقدر أحد على أن ينفع أحداً إلا بإذن الله، حتى لو اجتمع أهل الدنيا جميعاً على تنفيذ ذلك.

إن الأجل والرزق بيد الله وحده ؛ فلا يقدر طب الأرض بكل ما فيه من تقدم وتقنية على أن ينقذ شخصاً يموت، ولا يستطيع أهل الدنيا كلهم أن يفعلوا شيئاً لأنفسهم في طلب الرزق، فالسعي لا ينفع بشيء، ولا يجلب الرزق، وبالرغم من أننا نسعى إلا أننا لا ننال ما نطلب ولا نحصل عليه، وكل ما نخطط له في الدنيا ومصالحها لا يمكن أن ننفِّذه نحن كما خططنا، ومن قال غير ذلك فهو مكابر أو طُمِس على بصره فلم يستطع أن يرى شيئاً.

إن الله سبحانه قدَّر المقادير وكتبها في اللوح المحفوظ، وهذا علمه سبحانه الأزلي، وقد جرى تدوين كل شيء في الأزل، وليس ثمة تبديل ولا تغيير لما كتبه، فهو عالم بكل شيء حصل وسيحصل في الأزل والأبد، وهذا مما يجب أن نؤمن به وأن نفهمه جيداً، فالقلم أمره الله أن يكتب قبل خلق

الخلائق كل ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم رفع القلم فلا مجال لتغيير ما كتب، وجفت الصحف المكتوبة عند الله منذ زمان بعيد، وهذا يعني أيضاً تأكيداً لعدم التغيير والتبديل. وليس هنا مجال البحث في مفهوم العدل الإلهي إذ لا يتعارض ما ذكرناه مع حرية اختيار الإنسان والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ [النساء: 40].

5- لا مردَّ لقدر الله

وأيضاً فإن الإنسان يعيش ويحيا في هذه الحياة وتصيبه المصائب والبلايا والامتحانات من عند الله سبحانه، وهذا الأمر هو من طبيعة الحياة التي خلقنا الله لها، وأمرنا بأن نتبع أوامره سبحانه، وقضاء الله هو كل ما يصيب الإنسان أو يفعله الإنسان على غير إرادة منه، والإنسان الصالح خصوصاً يتعرض للمصائب، فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: 155-157].

فالبلاء هو اختبار من الله للعبد، وهو أيضاً فيه امتحان حتى تظهر نفوس الناس على حقيقتها؛ فهم إما أن يصبروا للبلاء ويلجؤوا إلى الله كما فعل نبي الله أيوب عليه السلام الذي كان صابراً محتسباً، وإما أن يحيدوا عن الدين ويظهر منهم ما يعارض الدين والعياذ بالله، فهؤلاء يهلكون في الآخرة. وقد يصاب الإنسان بالبلاء تكفيراً عن ذنبه بسبب كلمة قالها أو عبارة خرجت منه كما حصل في غزوة حنين إذ أبدى بعض الصحابة إعجابهم بكثرة عدد المسلمين وصرح بأن النصر لو حصل فهو ليس بسبب قلة العدد بل بكثرته، ولم ينسب النصر إلى الله، فخسر هنالك المسلمون.

ومن هنا أوصى النبي ﷺ بالصبر على الأحداث، فالنصر يأتي مع الصبر، ولا بد أن الله سوف يجعل مخرجاً من الكرب، وسوف يكون مع العسر اليسر، فالله هو الذي يبتلينا ويمتحننا ويختبرنا، ولا بد لنا من الصبر على البلاء، ولذلك كان للصبر أجر عظيم كما ذكر الله سبحانه في كتابه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]؛ وقد قال الإمام الأوزاعي رحمه الله في تفسير الآية: ليس يوزن لهم ولا يُكَالُ، وإنما يُغْرَفُ لهم غَرْفاً. فسبحان الله الكريم رب العرش العظيم، فهذه نعمة عظيمة كبيرة.

openkandl.com